السفارة العربية الإسلامية في العصر العباسي
(١٣٢-٦٥٦هـ/٧٥٠-١٢٥٨م)

إعداد

دكتور/سفيان عثمان المقرمي

استاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المشارك

قسم التاريخ بكلية الآداب

جامعة إب.

المقدمة:

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أكرم مرسل وأطهر منسل.. وبعد:

يعد موضوع الدبلوماسية من الموضوعات الحيوية والساخنة، ولا سيما في هذا العصر، غير أنها -ورغم تعاظم أهميتها فإنها- ترجع في نشأتها إلى عهود مبكرة من حياة البشرية، وتحديداً إلى عهد الإمبراطورية المصرية القديمة[1].

بيدَ أن الدبلوماسية قد مثلت متغيراً سياسياً أكثر حضوراً وتجلياً في السياسة الدولية المعاصرة، لا سيما في زمن العولمة الذي يشهد اليوم تنامياً ملحوظاً لهذا الموضوع، وحضوراً واضحاً في مختلف المحافل الدولية ذات العلاقة بالمتغير السياسي، وذلك لما لهذا العصر من العلاقات الدولية بالغة التعقيد والتداخل، والذي يعد في بعض الأوجه أحد إفرازات ظاهرة العولمة التي أعطت لهذا الموضوع بمؤسساته المختلفة ومستوياته المتعددة أهمية بالغة.

وفي الوقت الذي يرى البعض أن الدبلوماسية غاية في التعقيد كونها لا تقتصر على محض تسليم رسالة أو إرسال مبعوث فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى عدة فعاليات تعتمد منهجاً يقوم على أطر فكرية وإجرائية لها من الأسس والمقومات ما يجعلها منظومة متكاملة يصعب فهمها فهماً سطحياً، في حين نجد فريقاً آخر يأخذها باعتبارها نوعاً من الأداء الذي يعكس الفعل السياسي في أبسط مستوياته ماثلا في عملية تمتين الصلات ذات الأبعاد السياسية المتقاطعة، والتي قد لا تتجاوز الفعل السياسي العفوي في أبسط صورة بعيداً عن التنظير والتأطير.

وأيا كانت النظرة لهذا الموضوع غير أنه يعد موضوعا حيويا جديراً بالدراسة والتقصي التاريخي، لبيان الأسس والمرتكزات التي بني عليها هذا الموضوع، والذي كان للعرب والمسلمين دوراً فاعلاً في بلورته وإرسائه على أسسه المعروفة في عصرنا الراهن، والتي لها من الأغراض المتعددة الظاهرية منها والضمنية، الظاهرية من مثل: ما كانت تقوم به العرب حين

توفد رسلها من وجهائها ورؤسائها لغرض تقديم التهاني، أو التعازي، أو عقد الصلح والمحالفات، أو إرسال الهدايا، أو توطيد أواصر العلاقة بالمصاهرة والزواج وغيرها من أمور تستوجبها سياسة الدول والمجتمعات.

أما الضمنية (الخفية) الذي لم يعد يقتصر على ما ذكر آنفاً بل تعدى ذلك إلى عدة فعاليات دبلوماسية تتناسب ومعطيات الحياة المعاصرة من مثل: صياغة النظريات، ووضع الخطط، ومعرفة الطرق والمسالك التي يمكن أن تمر بها الجيوش ومعرفة الأماكن التي تكون استراتيجية أكثر من غيرها، ومعرفة الجيش وعدته وعدده وخططه الدفاعية والهجومية، ومعرفة كيف يعيش رئيس البلد الذي يوفد إليه الدبلوماسي – المبعوث – وأنماط علاقاته وعاداته وأخلاقه ونقاط الضعف والقوة فيه، وما سواها من الأغراض الخفية للسفارات، وهو ما تسعى هذه الدراسة على إبرازه – في المدة موضوع الدراسة – عبر رحلة تاريخية تقوم على رؤية تحليلية نقدية لهذا الموضوع بأبعاده المختلفة لبيان إسهامات العرب المسلمين في تأصيل هذا الموضوع الحيوي الذي له من الحضور ما يدفع الباحثين إلى استلهام خلفيته التاريخية للإسهام في إبراز قيمته التاريخية ومنزلته الحضارية من حياة البشر.

ورغم ما يكتنف هذا الموضوع من عقبات، تأتي في طليعتها ندرة المصادر وصعوبة استقصاء الحديث عنها، ولكنني – بعد التوكل على الله – عدت إلى المصادر التاريخية استنطقها، وأتصيد النصوص من بين ثنايا سطورها، وكانت حصيلة ذلك المجهود هذه الدراسة التي آمل أن تكون ذات فائدة لتأصيل النظام الدبلوماسي العربي الإسلامي.

معنى الدبلوماسية:

عرفت الدبلوماسية في المعاجم والقواميس السياسية بأنها: الأسلوب الذي يدير به السفير أو المبعوث العلاقات الدولية عن طريق المفاوضات، كما تطلق على عمل الرجل الدبلوماسي أو فنه أو المهارة والبراعة في التعامل مع الآخرين.[٢]

وتقوم الدبلوماسية على المرتكزات الآتية:

الرسل، السفراء، المبعوثين، الوفود، وهي التي تعد مسؤلة إلى حد كبير عن تحديد طبيعة العلاقات التي تسود الدول والجماعات والأفراد.

الرسل: ومفردها رسول وهو الذي يرسل في رسالة[٣]، والرسول هو الذي يرسله الملوك سفيراً بينهم[٤].

اما السفير: فهو الرسول المصلح بين القوم، والجمع سفراء، وقد سفر بينهم بسفر وسفارة أي أصلح[٥]، وقصد بها الملائكة الكرام الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسله في قوله تعالى (بأيدي سفرة كرام بررة)[٦].

والبررة هم المبرءوون من العيوب كما سيأتي في مواصفات السفير، وتأتي كلمة موفود ومبعوث بنفس المعنى الذي هو الرسول[٧].

وهكذا يتوافق معنى السفير في اللغة العربية الفصحى مع معناه في المصطلحات السياسية الحديثة المعتمدة في القانون الدولي، كما أن معناه قديماً يشابه معناه حديثاً، كما جاء في المعاجم العربية القديمة والحديثة.[٨]

مواصفات السفير أو المبعوث:

لما كان السفير أو المبعوث أو الرسول يمثل الدولة، فهو يتكلم باسمها، ويبرم المعاهدات والاتفاقيات نيابة عنها، لذا أصبح من الضروري وضع مواصفات حضارية وسياسية لمن يصلح للسفارة تتناسب وأهمية هذا المنصب.

وتشير المصادر إلى مواصفات السفراء، وما يجب أن يتحلوا به من خصائص ومميزات تؤهلهم

- دون غيرهم – للقيام بمهام معينة، ونستخلص من هذه المصادر، بعض المواصفات بإيجاز والتي من أهمها:

١- الوقار وثبات العقل: ويشمل ثبات العقل التجربة الغنية والمعرفة بالتقاليد المرعية، كما يشمل أيضا المعرفة بلغة القوم الذين يذهب سفيراً بين ظهرانيهم، ويشمل أيضا حدة الذكاء وإلمام السفير بقسط من علوم عصره، ولقد كان السفراء في الحقبة موضوع الدراسة ملمين ببعض الفرائض والسنن والأحكام وغيرها(٩)، وقد اختار النبي صلى الله عليه وآله وسلم سفراءه من صفوة صحابته في العلم، إن لم يكونوا صفوة صفوهم.(١٠)

٢- الصبر: وهو الحبس والتجلد وحسن الاحتمال، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيراً له وأوسع من الصبر(١١)، وهي صفة مهمة على السفير أن يتحلى بها، لأن مهمة السفير ليست باليسيرة وتتطلب منه الصبر في المواقف التي ينبغي له أن لا يفرط فيها بحقوق من يقوم بتمثيله، وقد يوضع في إطار وضعيات حرجة، أو يتعرض لاستفزازات مقصودة، وهنا يتطلب منه أن تكون ردود فعله موزونة، وتتحلى بالصبر والتروي.(١٢)

٣- أن يكون ذو خلق كريم، وخلقة مقبولة: وقد حرص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على اختيار سفرائه من بين أصحابه الذين تتوافر فيهم صفات شكلية جميلة*، إلى جانب سماتهم النفسية والعقلية، وهذا لا يتناقض ومبادئ الإسلام في المساواة بين الناس واشتراط سمة المظهر، لأن الأمر هنا يتعلق بالأوضاع الوظيفية ومقتضياتها، وبالقاعدة الإدارية التي ترى ضرورة وضع الرجل المناسب في المكان المناسب. كما يستحب في السفير أن يكون وسيما قسيما، تمام القد، عبالة الجسم، حتى لا يكون قميئاً، وإن كان المرء بأصغريه ومخبوءاً تحت لسانه، ولكن الصورة تسبق اللسان، والجثمان يستر الجنان(١٣). إن مظهر المرء يؤثر فيمن يراه من الناس، فإن كان مظهره مقبولا كان بداية طيبة لتقبل ما يعرض ولتحقيق ما يستهدف، أما إذا كان مظهره غير ذلك فقد يكون بداية الإخفاق، وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: (إذا أبردتم إلي بريداً

فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم)[١٤].

٤- أن يكون كريم المحتد ومن ذوي الأقدار والأحساب: لأن في الحسب الأصيل حصانة من الزلل الشخصي، ولأن من تربى في الأسر الكريمة يقدر الأمور حق قدرها، ويتخذ لكل نوع من التحدي ما يليق به من استجابة.

٥- الأمانة والصدق والشجاعة: وهي صفات متلازمة بحيث ينقل رسالته بأمانة وصدق ولا يقع نهباً للتردد، بمعنى أن يكون جريئا وشجاعاً في الحوار وفي نقل الأفكار. وجاء في كتاب شرح السير الكبير[١٥]: الواجب على المرسل أن يختار لرسالته الأمين دون الخائن، والصادق دون الكاذب.

وقبل الحديث عن السفارة الإسلامية في العصر العباسي يجدر بنا أن نلم إلمامة سريعة بأحوال الخلافة العباسية والأدوار التي مرت بها منذ نشأتها وحتى سقوطها.

تولى العباسيون الخلافة الإسلامية عام ١٣٢هـ/٧٥٠م حيث بويع لأول خلفائها أبي العباس السفاح بالكوفة، واستمرت خلافتهم حتى عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وهو العام الذي شهد سقوط الخلافة على يد المغول في عهد آخر خليفة عباسي وهو المستعصم الذي قتل على يد هولاكو خان المغول من أعقاب جنكيز خان موحد التتر الخارج بهم إلى بلاد الإسلام.

استمرت خلافة بني العباس ٥٢٤ سنة، استخلف فيها ٣٧ خليفة، متوسط ملك الواحد منهم نحو ١٤ سنة، وأكبر مدة حكم فيها خليفة عباسي هي ٤٦ سنة وأقلها سنة فما دونها.

مكثت الدولة العباسية ١٠٠ سنة لخلفائها الكلمة العليا والسيادة التامة على جميع أرض الخلافة الإسلامية (ما عدا بلاد الأندلس)، وقام في هذا العصر عصر القوة ثمانية خلفاء وهم السفاح، المنصور، المهدي، الرشيد، الهادي، الأمين، المأمون، المعتصم، الواثق. متوسط خلافة الواحد منهم ١٢ سنة، وينتهي هذا العصر بوفاة الواثق ٢٣٢هـ/٨٤٦م.

العصر الثاني واستمر قرابة قرن واحد من ٢٣٢-٣٣٤هـ، أخذت الدولة فيه بالزوال شيئاً فشيئاً، وضعفت مكانة بني العباس في نفوس الأمم الإسلامية، وأجترأ الأمراء في مناطق

الأطراف على الاستقلال، حتى لم يبق بيد العباسيين غير العراق وفارس والأهواز، وآل الأمر إلى أن يتولى عاصمة الخلافة بغداد مملوك تركي أو فارسي أطلق عليه لقب أمير الأمراء، وليس للخلفاء من الأمر شيء.

قام في هذا العصر إثني عشر خليفة، وهم: المتوكل، المنتصر، المستعين، المعتز، المهتدي، المعتمد، المعتضد، المكتفي، المقتدر، القاهر، المتقي، المستكفي.. الذي جاء البويهيون في نهاية عهده.. ومتوسط خلافة الواحد منهم ثمان سنوات ونصف، ولم يمت منهم موتاً طبيعياً إلا أربعة فقط، والباقون خرجوا من الخلافة بين قتيل ومخلوع.

العصر الثالث من عصور الخلافة العباسية يبدأ من عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م، ليس للخليفة فيه إلا الأسم أما السلطان الفعلي فكان بيد بني بويه، وكان الخليفة أشبه بموظف لهم، بالإضافة إلى التباين المذهبي بينهما، إذ كان بنو بويه شيعة غلاة، وإنما رضوا ببقاء الخليفة السني العباسي ليكون أمره عليهم هينا يبقونه متى شاءوا، ويعزلونه أو يقتلونه متى أرادوا.

وقد عاصر هذا الدور من الخلفاء: المستكفي، المطيع، الطائع، القادر، القائم، ومتوسط مدة الخليفة منهم ٢٢ سنة، والقائم هو حلقة الوصل بين هذا العصر والعصر الذي يليه.

العصر الرابع: ويبدأ من عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م إلى عام ٥٩٠هـ/١١٩٣م، تميز هذا العصر بإنتقال السلطان الفعلي فيه إلى سلطان آل سلجوق، وكان بنو العباس مع هذه السلطنة أحسن حالا منهم مع بني بويه، كون هؤلاء كانوا يحترمون الخلفاء تدينا ويبدون لهم من مظاهر التعظيم والإجلال ما يقضي به منصبهم الديني.

وقد ولي هذا الدور من خلفاء بني العباس: المقتدي، المستظهر، المسترشد، الراشد، المقتفي، المستنجد، المستضيء، ومتوسط خلافة الواحد منهم نحو عشرين عاما، ولم يكن الخلفاء في هذه المدة على حال واحد، إذ تفاوتت مواقفهم بين القوة والضعف، ومحاولة استرجاع هيبة الخلافة كما حدث في عهد كل من المسترشد والراشد.

وانقضت دولة السلاجقة في عام ٥٩٠هـ/١١٩٣م على يد خوارزم شاه، وقد اضمحل نفوذهم في العراق تماما.

مكث العباسيون بعد سقوط السلاجقة قرابة ٦٦ عاماً لم يكونوا فيه تحت سلطان أي قوة، بل كانوا مستقلين بحكم العراق إلى أن قام المغول والتتار بحركتهم التي ابتدأت بأقصى تركستان، وهبت ريحهم على البلاد الإسلامية، وازالوا العباسيين عن بغداد على يد هولاكو حفيد جنكيز خان عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م كما هو معلوم.[١٦]

وهكذا: جاءت الرايات السود من المشرق فأقعدت بني العباس على عرش بني أمية، وجاءت رايات التتر من المشرق أيضا فثلت عرشهم من بغداد زهرة المشرق وجنة الدنيا.

السفارة العربية الإسلامية في العصر العباسي

(١٣٢-٦٥٦هـ/٧٥٠-١٢٥٨م)

مما لا شك فيه أن التمثيل الدبلوماسي بعد قيام الدولة العباسية شمل مساحات واسعة نظراً لتوسع الدولة العباسية، بحيث امتد هذا التمثيل إلى الصين شرقا، وأوروبا غرباً، كما شمل الدولة البيزنطية التي كانت على تخوم حدود الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي.

ومن البديهي لم تكن العلاقات القائمة بين هذه القوى علاقات عسكرية وحربية بصورة دائمة كما قد يفهم البعض، بل شملت علاقات ودية أيضا، إلا أن أبرز ما يميز العلاقات الدبلوماسية في هذه المرحلة هو إتجاهها نحو التعقيد نظراً لوضوح سياسة الأحلاف والتكتلات الدولية – إن جاز لنا التعبير –، وتنامي المصالح الدولية المشتركة.

إذ أن قيام دولة الفرنجة[١٧] أو الدولة الكارلونجية **Carlonigien** في الغرب الأوروبي ودخولها في تنافس مع الدولة البيزنطية في الشرق، ووضوح الخلاف السياسي والمذهبي بينهما، أدى ذلك إلى التقاء مصالحهما مع كل من الدولة العباسية في الشرق الإسلامي وإمارة الأمويين في الأندلس[١٨] وبذلك اشتدت المنافسة بين الدولتين المسيحيتين (دولة

الفرنجة – وبيزنطة) حول تزعم العالم المسيحي من جهة، مثلما اشتدت المنافسة بين الدولتين العربيتين الإسلاميتين (الأموية والعباسية) لإستقطاب العالم الإسلامي من جهة أخرى. ومن ثم تبلورت هذه المنافسة إلى خصومات. حيث أن العباسيين أعداء الأمويين وأعداء الدولة البيزنطية من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن الفرنجة أعداء للأمويين في الأندلس وأعداء للدولة البيزنطية، ومن هنا التقت المصالح المشتركة بين الطرفين، وشكلت ما يشبه المحورين.

ونظراً لتنامي المصالح المشتركة بين الدولتين العباسية ودولة الفرنجة، فقد أدى ذلك إلى تبادل الوفود والهدايا بينهما(١٩) عبر المبعوثين الذين كانوا يحملون الرسائل الودية بين الطرفين.

ونظرة تحليلية لطبيعة تلك العلاقات تقود إلى نتيجة مفادها أن تنامي المصالح المشتركة بين الدول في تلك الحقبة التاريخية قد أدت بطبيعة الحال إلى التحالف بينهما، لأن الدولة العباسية ودولة الفرنجة تستهدفان من خلال ذلك إلى الضغط على الدولة الأموية في الأندلس والدولة البيزنطية عدواهما المشترك، بهدف التضييق عليهما ومن ثم إضعافهما، والعكس صحيح تماماً فيما يتعلق بالطرف الآخر (البيزنطية – والأموية)؛ مما أدى إلى خلق المواقف المحرجة لكلا الطرفين في العلاقات الدولية وقتئذ.

وهذا الوضع بطبيعة الحال أسهم إلى حد كبير في تطور العلاقات الدبلوماسية وتعدد أغراضها؛ من حيث تطور أساليب التهيوء والاستعدادات وأساليب الاستقبال والمفاوضات، وتطورت مع ذلك المراسيم الملازمة لها من مثل تلك التي كانت تظهر على الوفود والمبعوثين من مظاهر الأبهة في الملبس والسلوك؛ ومستوى ثقافة المبعوث أو السفير.

ففي عهد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٦٨م) ومعاصره ببين الثالث القصير (٧٥١-٧٦٨م) جاءت بعثة فرنجية إلى بغداد وتحديدا في عام ١٤٩هـ، وبقيت ثلاث سنوات، وكانت محل حفاوة من قبل الخليفة وحاشيته، وكان من أبرز أهدافها الضغط على الأمويين في الأندلس بغرض إضعافها مما يؤدي إلى خدمة الطرفين دون شك(٢٠) وعادت البعثة مصحوبة بوفد أرسله الخليفة ومحملة بهدايا وتحف تليق بمكانة الوفد ومكانة

الأمبراطور الفرنجي[٢١] واستقبل الوفدان في مرسيليا وتوجها بعد ذلك إلى "اللورين" لقضاء فصل الشتاء؛ وهناك كان أمبراطور الفرنجة قد أكرمهم وأنزلهم في قصر سل (sels) على ضفاف نهر اللوار، ثم عادوا إلى الشرق عن طريق مرسيليا محملين بالتحف والهدايا إلى الخليفة العباسي[٢٢].

وفي عهد الخليفة المهدي ابن المنصور (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٤-٧٨٥م) قام أحد الأمراء العرب[٢٣] بثورة ضد الأمير الأموي في الأندلس عبدالرحمن الداخل*، وطلب حماية شارلمان ملك الفرنجة الذي بدوره أتصل بالخليفة العباسي المهدي للتنسيق في غزو الأندلس لتحقيق غرض في نفسه وهو طموحه لتكوين الإمبراطورية، لكنه تذرع بحق العباسيين في أسبانيا نتيجة للعلاقات الودية بينه وبين الخلافة العباسية[٢٤]، وفعلا تحركت جيوش شارلمان وعبرت جبال البرانس، وإن كان مصير هذه الحملة الفشل إلا أنها أسفرت عن اضطرار الأمير الأموي إلى أن يقيم علاقات ودية مع شارلمان عكس ما كانت عليه من قبل.

وكان شارلمان قد عاصر ستة من خلفاء العصر العباسي الأول وهم المنصور والمهدي والهادي والرشيد والأمين وجزء من حياة المأمون.

وحرص شارلمان في عهد الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م) على إرسال الوفود لعقد عهود الصداقة والتحالف بينهما بغرض سحق الوجود الأموي في الأندلس[٢٥] كما تطورت العلاقات الدبلوماسية في عهد هارون الرشيد مع دولة الفرنجة[٢٦] حيث كانا الشخصان البارزان في العالم إلا أن الرشيد كان الأكثر شهرةً وحضارةً وعمراناً، والأعظم جاهاً وسلطانا من شارلمان، كون الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي كانت تستظل بحضارة عريقة وثقافة واسعة لم تكن لدولة شارلمان، وإن تحليل المواقف يقود إلى الاعتقاد أن شارلمان كان أحوج على تلك العلاقات من الخليفة الرشيد – إن صحت هذه العلاقة – لأن ورودها جاء في المصادر الفرنجية التي بدت أكثر اهتماما بتوثيق تلك العلاقة من المصادر العربية الإسلامية.

وفي عام ٧٩٩م/١٨٣هـ أرسل شارلمان وفداً (سفارة) مؤلفا من ثلاثة أشخاص توفي اثنان منهم في الطريق ووصل الثالث إلى بلاط بغداد، وكان الوفد قد مرّ بالقدس لمعرفة أحوال المسيحيين هناك لتقديم الهدايا وتدارس الأوضاع[٢٧].

وعند وصول هذا الوفد إلى بغداد أعد الخليفة الرشيد مجلساً خاصا لاستقباله وهو المجلس الذي كان يعد لاستقبال مبعوثي كبار الملوك أو نوابهم مبرزا من خلاله هيبة الدولة العربية الإسلامية وأبهة الخلافة، ، وبعد دخول الوفد إلى مجلس الخليفة الذي كان يحتوي على نظام بديع يبهر النظر[٢٨]، استقبل الرشيد مبعوث شارلمان، فرحب به، وأكرمه، وقبل الهدية شاكراً، وشكل وفدا من مبعوثين أحدهما فارسي والآخر إبراهيم بن الأغلب[٢٩] يرافقان مبعوث شارلمان عند عودته، وأرسل مع الوفد هدايا وتحف كثيرة لملك الفرنجة شارلمان[٣٠] ومن ضمن الهدايا المرسلة الساعة المائية الدقاقة التي تعجب منها الفرنجة، وظنوا أن بها شياطين تحركها أو أن فيها سحراً ورقعة شطرنج مرصعة بأحجار كريمة نحتت بيادقها من العاج المحلى بالذهب مع حلي شرقية نسجت خيوطها من الذهب والفضة[٣١].

ولما وصلت هذه البعثة إلى بلاد الفرنجة استقبلها شارلمان بالقرب من تورنيو بإيطاليا أثناء عودته من عاصمته "أخن"، وتسلم هدايا الرشيد التي كانت تحوي تحفا نادرة مجلوبة من الهند واليمن بالإضافة إلى مفاتيح قبر السيد المسيح عليه السلام.[٣٢]

وكان موضوع العلاقات الدبلوماسية بين الرشيد وشارلمان موضع اهتمام المؤرخين في الغرب، في حين سكتت المصادر العربية الإسلامية إزاء هذه العلاقات، إما لكونها غير ذات أهمية في نظرهم، أو أنها كانت سراً من أسرار الدولة العليا، أو كما ذهب بعض الباحثين إلى التشكيك في صحة وجودها[٣٣]. ونحن نميل إلى هذا الاعتقاد الأخير.

مهما يكن من أمر، وما يكتنف هذه العلاقات من مبالغات – أن وجدت – إلا ان من الثابت أن هناك علاقات ودية كانت قد نشأت بين الرشيد وشارلمان تدل على تطور الدبلوماسية في العصر العباسي؛ وتبادل الطرفان الوفود والهدايا[٣٤] وتوصلا إلى تفاهم أو

اتفاق، وربما إلى معاهدة تنظيم العلاقة بينهما.

وقد ورد من النصوص التاريخية ما يفيد بتطور العلاقات الدبلوماسية في هذا العصر.

أما بالنسبة لعلاقة الدولة العباسية مع الدولة البيزنطية فقد كانت هي الأخرى علاقات عسكرية حربية، أفرزت كما هو معلوم مشكلات سياسية وبشرية وهي نتيجة طبيعية من نتائج الحروب التي تؤدي حتما إلى وقوع أسرى أو بروز مشكلات سياسية تحتاج بالضرورة إلى التسوية بين الطرفين المتحاربين؛ ومن هنا نشطت الدبلوماسية لوضع حد لتفاقم الأزمات ومفادات الأسرى.

وكان أول فداء[٣٥] بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية هو فداء أبي سُليم فرج خادم الخليفة العباسي الرشيد (ت١٩٣هـ/٨٠٨م) في عهد معاصره الامبراطور نقفور بن استبرق، كما تم مفادات كل أسير كان بأرض الروم سواء كان ذكرا أو أنثى، وكان القاسم ابن هارون الرشيد[٣٦] قد مثّل الجانب العباسي عندما كان معسكراً في مرج دابق من أعمال حلب.

وحضر هذا الفداء أبو سُيلم فرج خادم الرشيد وسالم البرلسي البربري مولى بني العباس ومعه ما يربو عن ثلاثين ألفاً من المرتزقة، كما حضر أهل الثغور وأهل الأمصار وغيرهم فاق عددهم الخمسين ألفاً، حضروا كأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة، وحضرت من الطرف الآخر مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزي ومعهم أسارى المسلمين، وكان عدد من فودي به من المسلمين حوالي (٣٧٠٠) أسيراً، في اثني عشر يوماً، وقد خلّد الشاعر مروان بن أبي حفصه هذا الحدث مادحاً الرشيد بقوله:

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها: محابس ما فيها حميم يزورها

على حين أعيا المسلمين فكاكها : وقالوا سجون المشركين قبورها.[٣٧]

وكان الفداء الثاني في عام ١٩٢هـ/٨٠٧م، وكان القائم بالفداء ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي أمير الثغور الشامية، وكان عدد الأسرى (٢٥٠٠) أسيراً واستغرقت عملية المفاداة

سبعة أيام، ثم ذكر المسعودي اثني عشر فداء تمت بين الطرفين وقدم شرحاً وافياً لكيفية وقوعها والسفراء الذين اشرفوا عليها وشروطها ومقادير النفقات فيها[٣٨].

ولتأكيد وجود علاقات دبلوماسية بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية نشير إلى عقد الصلح والهدنة بين هارون الرشيد والملكة "ايريني" أمبراطورة بيزنطة الذي تقرر بموجبه أن تدفع "ايريني" الجزية.

وجرت مراسلات بين الرشيد ونقفور الذي خلف "ايريني" بحكم بيزنطة، وذلك عندما عقد نقفور صلحاً مع شارلمان ليتفرغ للصراع مع الدولة العباسية.[٣٩]

وفي عام (٢٤٦هـ/٨٦١م) في أواخر خلافة المتوكل على الله العباسي جرت سفارة بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية في عهد الأمبراطور ميخائيل بن تيوفيل، كان الهدف منها إقرار السلام وإيقاف الحروب وتبادل الأسرى بعد الحروب التي نشبت بين الطرفين منذ عهد المعتصم والواثق، ولكي يدلل السفير البيزنطي على نوايا حكومته الحسنة استصحب معه سبعة وسبعين أسيراً من المسلمين فوجد استجابة من لدن الخليفة العباسي الذي أرسل وفدا برئاسة نصر بن الأزهر، السفير العالم والمطلع على تقاليد البلاط البيزنطي، والذي تقلد سيفاً و وضع على رأسه قلنسوة وبالزي العسكري، فرفض الطرف البيزنطي السماح له بالدخول لمقابلة الأمبراطور بتلك الهيئة، فقال لهم: إذاً أنصرف وأعود إلى حيث أتيت، أو أدخل بكامل ملابسي، وبالفعل انصرف، ولكنهم أرجعوه ومعه الهدايا من المسك والثياب والحرير والزعفران، فأكرمه الأمبراطور، وهيئ له منزلاً بالقرب منه مع أعضاء وفده المرافق له، واستمرت المفاوضات بين الطرفين، وانتهت بإبرام اتفاقية لتبادل الأسرى وتسوية الخلافات.

وأقيم حفل في نهاية اللقاء بهذه المناسبة على ضفاف نهر "اللافس" الذي يقع في منطقة سلوقية.

وكانت العادة المتبعة لتبادل الأسرى أن ينصب جسراً على هذا النهر فيرسل كل فريق من ناحيته أسيراً، ويطلق الفريق الثاني بدوره أسيراً، بحيث يلتقي الأسيران في منتصف الجسر، واستغرقت هذه العملية مدة سبعة أيام، وعاد رئيس الوفد العباسي نصر بن الأزهر ومعه سبع وسبعون أسيراً كان من بينهم عدد من النساء والأطفال.(٤٠)

وفي عهد البويهيين(٤١) قام عضد الدولة البويهي بإرسال سفير عن الدولة العربية الإسلامية إلى الدولة البيزنطية ليعقد صلحا في إطلاق أسرى المسلمين مقابل أن يطلق البويهيون سراح أحد قادة الجيش البيزنطي ومن معه من أسرى البيزنطيين، وكانت البعثة برئاسة الإمام والعالم أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني المعروف بشيخ السنة في زمنه، وقد أثمرت المفاوضات بقيام معاهدة بين الطرفين نصت على تسليم الأسرى وتسوية الخلاف حول عدد من الحصون في منطقة الثغور التي كان الروم قد سيطروا عليها، وكان ذلك في عام ٣٧١هـ/٩٨١م وفي عهد الخليفة العباسي الطائع.

ومن الطريف أن ما حصل في هذه العملية لتبادل الأسرى وفي التمثيل الدبلوماسي: أن الوفد البيزنطي الذي كان باستقبال بعثة الباقلاني أخبرهم بأن لا يدخلوا على الإمبراطور البيزنطي بعمائمهم، وأن ينزعوا أخفافهم(٤٢)، لكن الوفد برئاسة الباقلاني أصر على الدخول للامبراطور بهيئته ظنا من الباقلاني أن الوفد البيزنطي يريد إذلالهم، وكون رسول الأمبراطور دخل بملابسه وسلاحه إلى الخليفة الطائع وإلى عضد الدولة البويهي، فإن من حقه وهو من علماء المسلمين وممثلا للدولة العربية الإسلامية أن يدخل بهيئته، وهي قاعدة من قواعد المعاملة بالمثل، وقد حقق الباقلاني الهدف المراد من سفارته بنجاح.(٤٣)

أما علاقات العباسيين مع منطقة الشرق الأقصى فتشير المصادر إلى وجود علاقات دبلوماسية للدولة العباسية مع الصين وعلى وجه التحديد منذ عهد الخليفة العباسي أبو العباس السفاح (١٣٢-١٣٦هـ/٧٥٠-٧٥٣م) كما تشير المصادر التاريخية الصينية إلى أن وفوداً عربية توجهت إلى الصين ويطلقون عليها وفود العرب ذوي الملابس السوداء(٤٤)،

تميزا لهم عن وفود الأمويين ذوي الملابس البيضاء(٤٥).

وقد بلغت السفارات بين العباسيين والصينيين خلال العصر العباسي الأول فقط (من ١٣٢-٢١٨هـ/٧٥٠-٨٣٣م) حوالي ١٥ سفارة عباسية، وكان الهدف منها في الأغلب هو إقامة العلاقات الودية، أو لتقديم الهدايا، أو لتنظيم أمور التجارة.

ومن الطبيعي أن تكون لتلك الصلات دورها الفعّال في توثيق العلاقات مع منطقة الشرق الأقصى وقتئذ.

كما تشير المصادر إلى أن عدد أعضاء السفارة الواحدة كان يتراوح ما بين ستة اشخاص وخمسة وعشرين شخصا، وأسهمت تلك السفارة في نمو المصالح المتبادلة بين الطرفين، وتسهيل أمور التبادل التجاري، بالإضافة إلى أظهار هيبة الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي؛ وفي الوقت نفسه أسهمت هذه السفارات في توطيد الجانب السياسي، تجلى ذلك حين استنجدت أسرة (تانغ*) الصينية الحاكمة بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور للقضاء على ثورة داخلية فقدم إليهم المعونة(٤٦)، حيث أرسل إليه بعضا من وحدات جيش المسلمين، قيل أن عددهم حوالي ثلاثة آلاف مقاتل، نجح بمساعدتهم في استرجاع عرشه الأمر الذي أدى إلى تعميق الصلات بين العباسين وامبراطور الصين من ناحية، وترتب عليه من ناحية أخرى أن استبقى الأمبراطور هؤلاء الجنود، فتزوجوا من صينيات، وأسهموا في غرس بذور سلالة الصينيين العرب المسلمين.(٤٧)

وعندما تم تأمين طرق المواصلات البرية والبحرية، انتظمت العلاقات بين العباسيين والصينيين، وتوثقت أواصر العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين، وصارت الوفود الصينية تصل إلى عاصمة الخلافة بغداد محملة بالهدايا والرسائل إلى الخلفاء.(٤٨)

وفي خلافة المهدي ابن أبي جعفر المنصور (١٥٨-١٦٩/٧٧٤-٧٨٥م) وصل وفد من الصين إلى بغداد يحمل معه أنواع الهدايا ومنها قرود مدربة.

وفي عام (٢٢٧هـ/٨٤٢م) أرسل الخليفة العباسي الواثق بالله وفداً للكشف عن

سور الصين العظيم برئاسة سلام الترجمان حينما أشيع أن السد تعرض للدمار، وهذا من شأنه أن يهدد بلاد المسلمين بالغرق من مياه ياجوج وماجوج(٤٩)، وهو السد الذي بناه ذو القرنين، وهو الأسكندر المقدوني، كما يذهب البعض.

فسار الترجمان من مدينة سُرّمَن رأى (سامراء) ومعه خمسون رجلاً ومائتا بغل تحمل الزاد والماء، وكان الخليفة قد أعطاه كتاباً إلى حاكم ارمينية ليسهل مهمة الوفد، وأعطاه حاكم ارمينية كتاباً إلى حاكم أقليم السرير، وكانت هذه الكتب بمثابة جواز السفر، وهكذا أعطاهم حاكم السرير كتابا إلى ملك الخزر حتى وصلوا إلى السد، ثم عاد الوفد إلى (سامراء) بعد أن استغرقت الرحلة قرابة ثمانية عشر شهرا(٥٠).

كما وصل الرحالة ابن وهب القرشي إلى مدينة خانقو وكانتون جنوب الصين، فقابل أمبراطور الصين، فأكرمه وأحسن ضيافته، وكان ذلك في عام (٢٥٧هـ/ ٨٧٠م)(٥١).

وفي الوقت ذاته يذكر المؤرخ والجغرافي المسعودي أخباراً عن وصول وفد صيني إلى الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥-٣٢٠/٩٠٨-٩٣٢م) محملا بالهدايا.

وأثناء تولي أسرة سونغ الصينية حكم الصين وصلت أكثر من خمس وعشرين سفارة صينية إلى بغداد ما بين عامي ٣٤٩ ، ٥٢٥هـ، ون لم تكن كلها دبلوماسية، بل كان يقوم بها التجار لتنظيم شئون تجارتهم(٥٢).

وفي عصر سيطرة بني بويه على بغداد، وتحديداً في عهد الخليفة العباسي المطيع لله في عام ٣٦٢هـ/٩٧٣م وصلت في هذا العام سفارة إلى بغداد تحمل هدايا ورسالة ودية من أمبراطور الصين، ورد عليه الخليفة العباسي ببعثة خاصة تحمل الهدايا للأمبراطور الصيني.

وهكذا: ظلت الصلات الدبلوماسية قائمة بين العرب المسلمين والصينيين، وكان من نتائج هذه العلاقات الدبلوماسية أن استوطنت جالية عربية إسلامية في الصين، وتركت وراءها آثاراً حضارية مهمة.(٥٣)

وفي عام ٣٠٩هـ/٩٢١م قام العالم ابن فضلان[٥٤] بالتوجه إلى بلاد البلغار الواقعة شرقي نهر الفولجا، وذلك بأمر من الخليفة العباسي المقتدر بالله ابن المعتضد (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م) استجابة لطلب ملك البلغار بعد اعتناقه الإسلام بحيث يرسل إليه الخليفة من يقوم بتعليمهم مبادئ الإسلام الحنيف وأحكامه.

وبدأت الرحلة من بغداد في ١١ صفر من عام ٣٠٩هـ/٩٢١م وكان مسار الرحلة: بغداد – جلولاء – خانقين – حلوان، همذان – الري – ثم عبرت نهر جيحون – بخارى، ثم صحراء قرقوف – ثم شمال بحر قزوين حتى وصلت إلى بلاد البلغار، وقد جابهت هذه الرحلة صعوبات كبيرة بعد أن استغرقت حوالي عام في الطريق حتى وصلت إلى قازان عاصمة البلغار.

وكان من ضمن الوفد فقيه ومعلم غلمان يساعدونهم بالإضافة إلى رسول ملك البلغار الذي كان يتقن اللغة العربية والروسية والتركية.

كما حمل الوفد الهدايا والخلع والملابس وأموالاً لإنشاء جامع ولسد نفقات الوفد.

وقد دون أبن فضلان في رحلته هذه ملاحظاته عن أحوال الروس وعاداتهم وتقاليدهم وأوضاعهم الاجتماعية في كتابه المشهور ب"رحلة ابن فضلان".

كما كانت رحلة ابن فضلان هذه موضع اهتمام عدد من المؤرخين الروس والمستشرقين الغربيين والعرب المسلمين، فتناولوها بالدراسة والترجمة.

وفي عام ١٨١٤م ترجمت بعض أجزاء الرحلة إلى اللغة الروسية، وترجمها نيكلسون إلى الانجليزية عام ١٨١٩م. وأخيراً تم العثور على الرحلة عام ١٩٢٤م في دار المخطوطات بمدينة (مشهد) الإيرانية وحققها الدكتور سامي الدهان[٥٥].

كما تعد هذه الرحلة مصدرا مهما لمن جاء بعده من الرحالة المسلمين في القرن الرابع الهجري الذين نقلوا عنها كثيرا من مثل: الأصطخري – المسعودي – وياقوت الحموي الذي أكثر من النقل منها.[٥٦].

الخاتمة

- إن التوسع الذي شهدته الدولة العربية الإسلامية في العصرين الأموي والعباسي بفعل حركة الفتوح الإسلامية الواسعة، أدى إلى انضواء أمم وشعوب ذوات نظم وحضارات وأفكار ومعتقدات تحت لواء الدولة العربية الإسلامية، وأفضى ذلك إلى بلورة الأدب الدبلوماسي العربي في هذه الحقبة؛ وفي الحقب التي تليها.
- لم تكن العلاقات بين الشرق والغرب – في المدة موضوع الدراسة – مقصورة على العداء والحرب، بل شملت علاقات ودية سلمية مثلت طبيعة هذه العلاقة بين الدول من حيث تقاربها وصلتها المتينة، أو علاقات الصداقة، أو المصالح المتنوعة مثل: المصالح التجارية أو العلمية أو العسكرية، وتحكمت طبيعة العلاقات بدرجة التمثيل الدبلوماسي، وأهمية الوفد والسفارة.
- وكما هو معروف الآن قد يكون الموفد سفيرا أو وزيراً، أو موظفا حكومياً؛ ويجب أن تتوفر فيه شروط لا تختلف كثيراً من حيث جوهرها عن الشروط المطلوبة في الوقت الحاضر.
- إن رسائل الخلفاء والملوك التي تعطى للمبعوث أو السفير كانت بمثابة جواز السفر في الوقت الحاضر، وكانت العناية بالرسائل كبيرة من حيث: طبيعة الخط وجودته، والمعنى الذي تشتمل عليه، وقد تُذَهب تلك الرسائل والتوصية بتسهيل مهمة المبعوثين، والمحافظة على حياتهم وضمان سلامتهم، وإعفاء أموالهم من الضرائب، وتخصيص الدور الملائمة لإقامتهم، والسماح لهم بمقابلة المسؤولين بما فيهم رئيس الدولة، وما إلى ذلك من أمور مهمة لا تزال الدول تعمل بموجبها في عصرنا الحاضر.(٥٧).

وأخيرا: أتمنى أن تكون هذه الدراسة قد حققت هدفها في تأصيل النظام الدبلوماسي العربي الإسلامي معززة بالمصادر الأولية، كما آمل أن تكون قد كشفت عن عراقة هذا النظام بما يدلل دون شك – مع غيره من النظم – على حيوية الحضارة العربية الإسلامية وقابليتها للتطور على نحو يخدم الإنسانية في كل زمان ومكان.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الأثير، علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ) اللباب في تهذيب الأنساب، تحقيق عبدالهادي النجار، ١٣٥٧هـ.
- البكري، أبو عبدالله بن عبدالعزيز (٤٨٧هـ) جغرافية الأندلس وأوروبا، تحقيق عبدالرحمن الحجي، بيروت، ١٩٨٦م، وهو جزء من كتابه "المسالك والممالك"
- ابن سعد، محمد بن سعد (ت ٢٤٠هـ) الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، بيروت، ١٩٩٠م.
- ابن الفراء، الحسين بن محمد، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٤٧م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، (ت٧١٠) لسان العرب، بيروت.
- الرازي، محمد بن أبي بكر (ت٦٦٠هـ) مختار الصحاح، بغداد، ١٩٨٣م.
- الشيباني، محمد بن الحسن، شرح السير الكبير، القاهرة د.ت.
- الطبري، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) تاريخ الرسل والملوك، دار الكتاب العلمية، بيروت.
- المسعودي، أبو الحسن، (ت٣٤٥هـ) التنبيه والإشراف، بيروت، ١٩٦٨م.
- المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر (٣٨٧هـ) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ليدن، ١٩٠٦م.
- المناوي، عبدالرؤوف، مختصر شرح الجامع الصحيح، بيروت، (د.ت).
- النووي، محي الدين (ت٧٤٤هـ)، رياض الصالحين، ط٣، مكة المكرمة، ١٣٩٠هـ.
- الدوري، إبراهيم ياس، عبدالرحمن الداخل وسياسته الخارجية والداخلية، بغداد، ١٩٨٢م.

- الألوسي، جمال الدين، الدبلوماسية عند المسلمين العرب، بغداد، ١٩٧٩م.
- الألوسي، عادل، تاريخ الإسلام في شرق آسيا، بغداد، ١٩٨٧م.
- بارتولد، هارون الرشيد وشارلمان، سان بطرس بورج، ١٩١٢م.
- باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، ١٩٥٦م.
- بك، محمد الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، دار الفكر، د.ت.
- جراندسن، وآخرون، كوليتر دكشنري، ١٩٧٩م، جلاسجو، ترجمة د. محمود المقطري.
- حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني، القاهرة، ١٩٥٣م.
- حسن فتح الباب، مقومات السفراء في الإسلام، القاهرة، ١٣٩٣هـ.
- خدوري، مجيد، الصلات الدبلوماسية بين الرشيد وشارلمان، بغداد، ١٩٣٩م.
- خطاب، محمود شيت، السفارات النبوية، بغداد، ١٩٨٩م.
- زكي، محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٨١م.
- السامر، فيصل، الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية، بغداد، ١٩٨٦م.
- شاكر محمود عبدالمنعم، محاظرات في تاريخ الدبلوماسية، معهد التاريخ، بغداد، ١٩٩٨م.
- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، القاهرة، د.ت.
- الصيني، بدر الدين، العلاقات بين العرب والصين، القاهرة، ١٩٥٠م.
- عنان، محمد عبدالله، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، القاهرة، ١٣٨٢م.
- مؤرخوا مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٩م.
- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٦٦م.
- فوزي، فاروق عمر، العباسيون الأوائل، ج٣، ١٩٨٢م.

- بحوث في التاريخ العباسي، بغداد، ١٩٧٧م.
- القاسمي، ظافر، الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام، بيروت، ١٩٨٢م.
- كراتشكو فسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، تعريب صلاح الدين عثمان، القسم الأول، جامعة الدول العربية، ١٩٥٧م.
- ماجد، عبدالمنعم، العلاقات بين الشرق والغرب، القاهرة، ١٩٦٦م.
- هويدي، فهمي، الإسلام في الصين، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٤٣/١٩٨١م.
- أبو النصر، عمر، الهوى والشباب والحضارة في عهد هارون الرشيد، ١٩٧٠م.

الهوامش

(١) ترجع الدبلوماسية في نشأتها الأولى إلى عهد الأسرة (الثامنة عشرة) التي تكونت على أثر طرد الهكسوس من مصر وملاحقتهم إلى فلسطين وسوريا إثر اكتشاف سجلات رسمية عرفت باسم (رسائل العمرانة) التي عدها الباحثون هي الأولى من نوعها في تاريخ العلاقات الدولية.

ينظر: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، ١٩٥٦م، ج٢، ص٦٨.

(٢) جراندسن وآخرون، كوليتر دكشنري، ١٩٧٩م، دار النشر، جلاسجو. ترجمة د. محمود المقطري، ص٤٤٥.

(٣) الرازي، محمد بن أبي بكر (ت٦٦٠هـ مختار الصحاح، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٨٣م، مادة رسل.

(٤) ابن الأثير، علي بن محمد الجزري (ت٦٣٠هـ) اللباب في تهذيب الأنساب، تحقيق عبدالوهاب النجار، القاهرة، ١٣٥٧هـ، ج١، ص٤٦٧.

(٥) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، (ت٧١٠هـ) لسان العرب، بيروت، د.ت، مادة سفر.

(٦) سورة عبسى، آية ١٥-١٦.

(٧) مختار الصحاح، مصدر سابق، مادة سفر.

(٨) القاسمي، ظافر، الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٢، ص٤٤٦؛ خطاب، محمود شيت، السفارات النبوية، بغداد، ١٩٨٩م، ص٩.

(٩) ابن الفراء، الحسين بن محمد رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة. تحقيق صلا الدين المنجد، القاهرة، ١٩٤٧م، ص١٠-١٢..

(١٠) خطاب، مصدر سابق، ص٣٣١.

(١١) النووي، محي الدين (ت٧٤٤هـ) رياض الصالحين، ط٣، مكة المكرمة، ١٣٩٨هـ، ص٢٩.

(١٢) ابن الفراء، مصدر سابق، ص١١-١٢.

* مثلا: دحية بن خليفة الكلبي كان من الوسامة وجمال الوجه بحيث أن جبريل عليه السلام كان يأتي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على صورته. ابن سعد، محمد بن سعد بن منبع الهاشمي البصري (ت٢٤٠هـ) الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبدالقادر عطاء، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ج٤، ص١٨٨.

(١٣) ابن الفراء، مصدر سابق، ص١٥-٣٤.

(١٤) المناوي، عبدالرءوف، مختصر شرح الجامع الصحيح، بيروت، ج١، ص٢٣.

(١٥) الشيباني، محمد بن الحسن، شرح السير الكبير، القاهرة، د.ت. ح٢، ص٤٧١.

(١٦) بك، محمد الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، دار الفكر، د.ت. ص٤٨٤.

(١٧) تشمل دولة الفرنجة: الأرض الكبيرة أو بلاد الغال(غالة) الواقعة خلف جبال البرانس أو ما يطلق عليها "البرتات" وهي القسم الجنوبي من فرنسا الحالية. واستخدم لفظ الفرنجة للدلالة على الأمبراطورية الرومانية المقدسة في أيام شارلمان تمييزاً لها عن الأمبراطورية الرومانية القديمة. ينظر: البكري، جغرافية الأندلس، ص٥٩.

(١٨) رغم العداء السياسي بين العباسيين والأمويين إلا أن هيبة منصب الخلافة ظل رمزاً مهاباً، ولم يقدم الأمويون على التسمي بهذا اللقب حتى عام ٣١٦هـ في عهد عبدالرحمن الناصر، وذلك بعد إعلان الفاطميين قيام الخلافة الفاطمية.

(١٩) شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، القاهرة، د.ت ترجمة جوزيف رينو، ص١١٩.

(٢٠) شاكر محمود عبدالمنعم، محاضرات في تاريخ الدبلوماسية العربية الإسلامية، معهد التاريخ العربي الإسلامي، بغداد، ١٩٩٨م.

(٢١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٥٣م، ح٢، ص٢٠٣.

(٢٢) أرسلان، تاريخ غزوات العرب، مصدر سابق، ص١١٩.

(٢٣) هو سليمان بن يقظان الأعرابي الكلبي.

* هو عبدالرحمن بن معاوية، الملقب بصقر قرشي، الذي فرّ عقب سقوط دولة الأمويين على يد العباسيين عام ١٣٢هـ. وأسس في الأندلس الإمارة الأموية التي استمرت طيلة ثمانية قرون، حتى سقوط آخر معقل من معاقلها (غرناطة) ٨٩٧هـ/١٤٩١م.

(٢٤) إبراهيم الدوري، عبدالرحمن الداخل وسياسته الخارجية والداخلية، بغداد، ١٩٨١م، ص١٧٤؛ شاكر محمود، مصدر سابق.

(٢٥) عنان، محمد عبدالله، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ص٢١١، ٢١٨، ٢١٩.

(٢٦) كتب الدكتور مجيد خدوري كتابا عن العلاقات الدبلوماسية بين شارلمان وهارون الرشيد، وقد اختلف المؤرخون ليس فقط حول طبيعة هذه العلاقة وأهدافها، بل على حقيقة وقوعها. وتشير الروايات إلى أن شارلمان بدأ بخطب ود الرشيد فأرسل له وفداً عام ٧٩٧م، وأرسل رسولاً إلى بطريق القدس عام ٧٩٩م ورد الرشيد بإرسال وفد عام ٨٠١م، وأعقبه شارلمان بإرسال وفد ثان عام ٨٠٢م، فرد عليه الرشيد بوفد عام ٨٠٧م، وكانت الوفود تحمل الهدايا المختلفة إلى كل من العاهلين.

صحيح بأن المصلحة السياسية كانت تدعوا الدولتين العباسية والفرنجية إلى التقارب لأن عدوهما واحد وهو الأمويين والبيزنطيين، إلا أن الموضوع بحاجة إلى التريث حتى يتم اكتشاف مصادر جديدة موثوقة تحتوي على معلومات جديدة عن طبيعة تلك الصلات. ينظر:

خدوري، مجيد، الصلات الدبلوماسية بين الرشيد وشارلمان، بغداد، ١٩٣٩م، ص٦١؛ عبدالمنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٦٥-٧٢؛ فاروق عمر فوزي، بحوث في التاريخ العباسي، بغداد، ١٩٧٧م، ص٩١-٩٣؛ بارتولد، هارون الرشيد وشارلمان، سان بطرس بورج، ١٩١٢م.

(٢٧) إبراهيم الدوري، مصدر سابق، ص١٨٩.

(٢٨) ينظر تفاصيل ذلك في: عمر أبو النصر، الهوى والشباب والحضارة في عهد هارون الرشيد، ص٩٢ وما بعدها.

(٢٩) إبراهيم بن الأغلب هو الذي أذن له الرشيد بتأسيس دولة الأغالبة في تونس عام ١٨٤هـ/٨٠٠م لكي تكون حاجزا بين ممتلكات أرض الخلافة العباسية، ودولة الأدارسة (العلوية) التي انشأها أدريس الأول بعد هروبه من الحجاز عقب وقعة (فخ) في عهد الخليفة المهدي عام ١٦٩هـ/٧٨٥م.

(٣٠) أرسلان، غزوات العرب، ص١٣٢.

(٣١) ينظر، عمر أبو النصر، الهوى والشباب، مصدر سابق، ص٩٢.

(٣٢) أرسلان، غزوات العرب، مصدر سابق، ص١٣٣.

(٣٣) فاروق عمر فوزي، بحوث في التاريخ العباسي، ص٩١-٩٣.

(٣٤) مجيد خدوري، العلاقات بين شارلمان والرشيد، مصدر سابق، ص٣٠-٣٦.

(٣٥) المسعودي، التنبيه والإشراف ص١٦٠.

(٣٦) ينظر ترجمته في: الهوى والشباب، مصدر سابق، ص٨٥.

(٣٧) المسعودي، التنبيه والأشراف، مصدر سابق، ص١٦٠-١٦١.

(٣٨) ينظر المسعودي، التنبيه والأشراف، ص١٦١-١٦٦.

(٣٩) فاروق عمر فوزي، العباسيون الأوائل، ج٣، ١٩٨٢م، ص١٩٢؛ فاروق عمر، بحوث في التاريخ العباسي، مصدر سابق، ص١٨٨-١٨٩، الهوى والشباب، عمر أبو النصر، مصدر سابق، ص٨٣-٨٦.

(٤٠) حول هذه الأحداث: ينظر: الطبري، محمد بن جرير، ت ٣١٠، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٥، ص٢٤٦.

(٤١) سيطر البويهيون على مقاليد الخلافة العباسية عام ٣٣٤هـ حتى ٤٤٧هـ.

(٤٢) جمال الدين الألوسي، الدبلوماسية عند العرب المسلمين، بغداد، ١٩٧٩م، ص٤٨-٤٩؛ شاكر محمود عبدالمنعم، مصدر سابق.

(٤٣) الأولسي، مصدر سابق، ص٥١.

(٤٤) كان شعار العباسين الملابس السوداء ويطلق عليهم المسودة. ينظر: فاروق عمر، بحوث في التاريخ العباسي، مصدر سابق، ص٢٤٣.

(٤٥) بدر الدين الصيني، العلاقات بين العرب والصين، القاهرة، ١٩٥٠م، ص١٤٦ وما بعدها.

* حكمت أسرة تانغ الملكية الصين قرابة ثلاثة قرون (٦١٨/٩٠٧م)

(٤٦) فيصل السامر، الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية، بغداد، ١٩٨٦م، ص١٢١-١٢٧؛ عادل الألوسي، تاريخ الإسلام في جنوب شرقي آسيا والصين، بغداد، ١٩٨٧م، ص٢٢٠-٢٢١؛ فهمي هويدي، الإسلام في الصين، عالم المعرفة، مجلة، يوليو ١٩٨١م، ص٤٨، ٥٢، ٧٠.

(٤٧) فهمي هويدي، مصدر سابق، ص٥٠.

(٤٨) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٥٥٤، شاكر محمود، مصدر سابق.

(٤٩) المقدسي، أبو عبدالله أحمد (ت٣٨٧هـ/٩٩٧م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٢٦٢.

(٥٠) زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٨١م، ص١٥-١٧.

(٥١) زكي محمد حسن، مصدر سابق، ص١٩-٢٠.

(٥٢) السامر، الأصول التاريخية، مصدر سابق، ص١٢٣.

(٥٣) السامر، الأصول التاريخية، مصدر سابق، ص١٢٤-١٢٥.

(٥٤) ابن فضلان: هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد، كان مولى لأحد الخلفاء العباسيين.

(٥٥) ينظر: رحلة ابن فضلان بتحقيق سامي الدهان، زكي محمد حسن، ص٢٦؛ شاكر محمود عبدالمنعم، مصدر سابق.

(٥٦) زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون، مصدر سابق، ص٢٦٠٣١؛ كراتشكو فسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، تعريب صلاح الدين عثمان، القسم الأول، جامعة الدول العربية، ١٩٥٧م، ص١٥٥.

(٥٧) ينظر: عنان، محمد عبدالله، مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٩م، ص٧٦-٨٤. في معرض حديثة عن مؤلفات القلقشندي ومنهجه؛ وخاصة كتابه صبح الأعش في صناعة الإنشاء.